وزارة الثّقافة
الهيئة العامّة السّوريّة للكتاب
مديريّة منشورات الطّفل

مكتبة الطفولة

١٠٤
تشرين الثاني ٢٠٢٣م

عالمٌ رمادي

قصة: آلاء أبو زرار
رسوم: زبيدة الطلاع

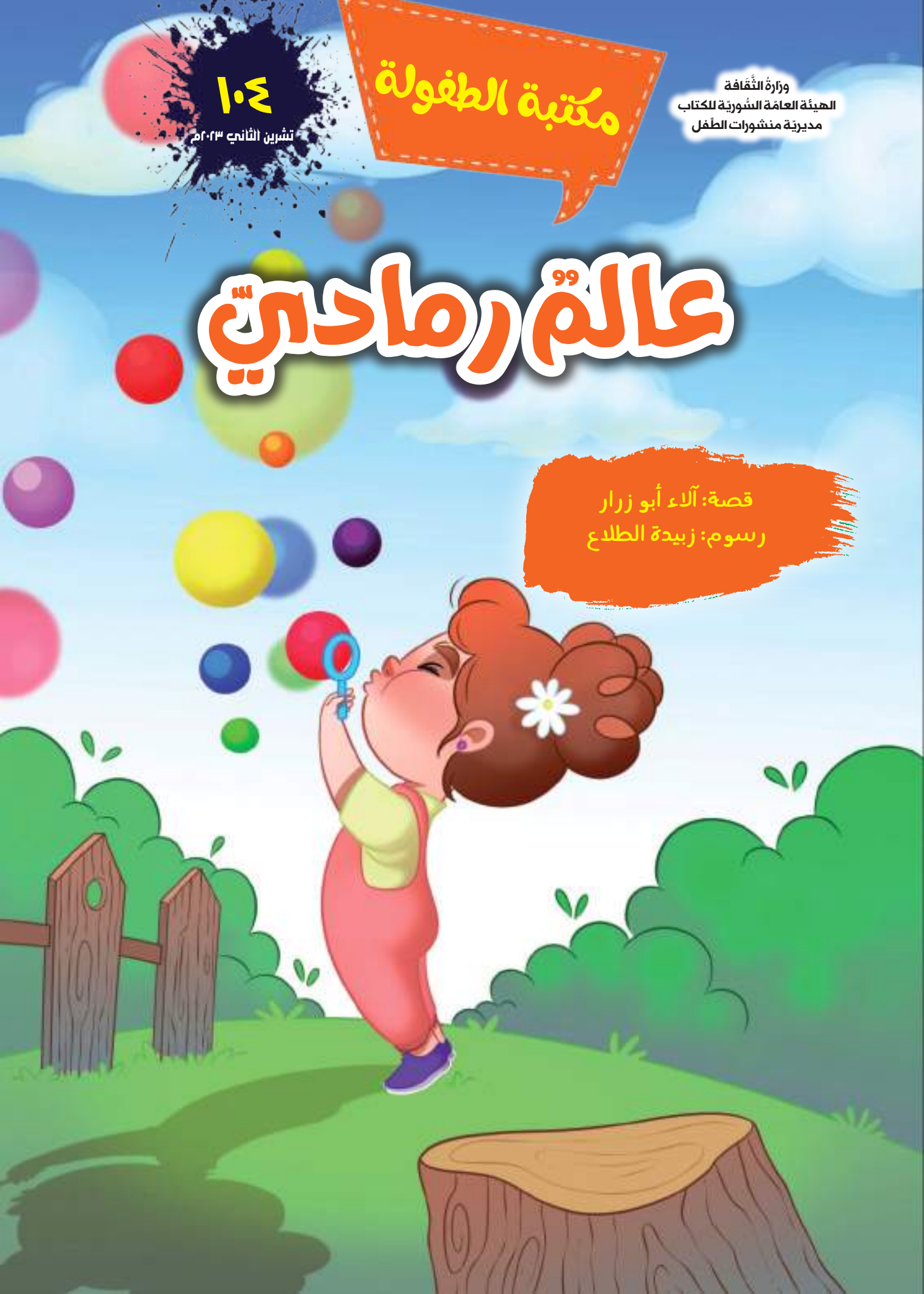

رئيسُ مجلس الإدارة
وزيرةُ الثقافة
الدكتورة لبانة مشوّح

الإشراف العامّ
المـدير العــامُّ للهيئـة
العامّة السّوريّة للكتاب
د. نايف الياسين

رئيس التحرير
مدير منشورات الطفل
قحطان بيرقدار

الإخراج الفنّي
هيثم الشيخ علي

الإشراف الطباعيّ
أنس الحسن

مكتبة الطفولة

سلسلة قصصيّة موجّهة إلى الأطفال

عالمٌ رماديّ

قصة: آلاء أبو زرار
رسوم: زبيدة الطلاع

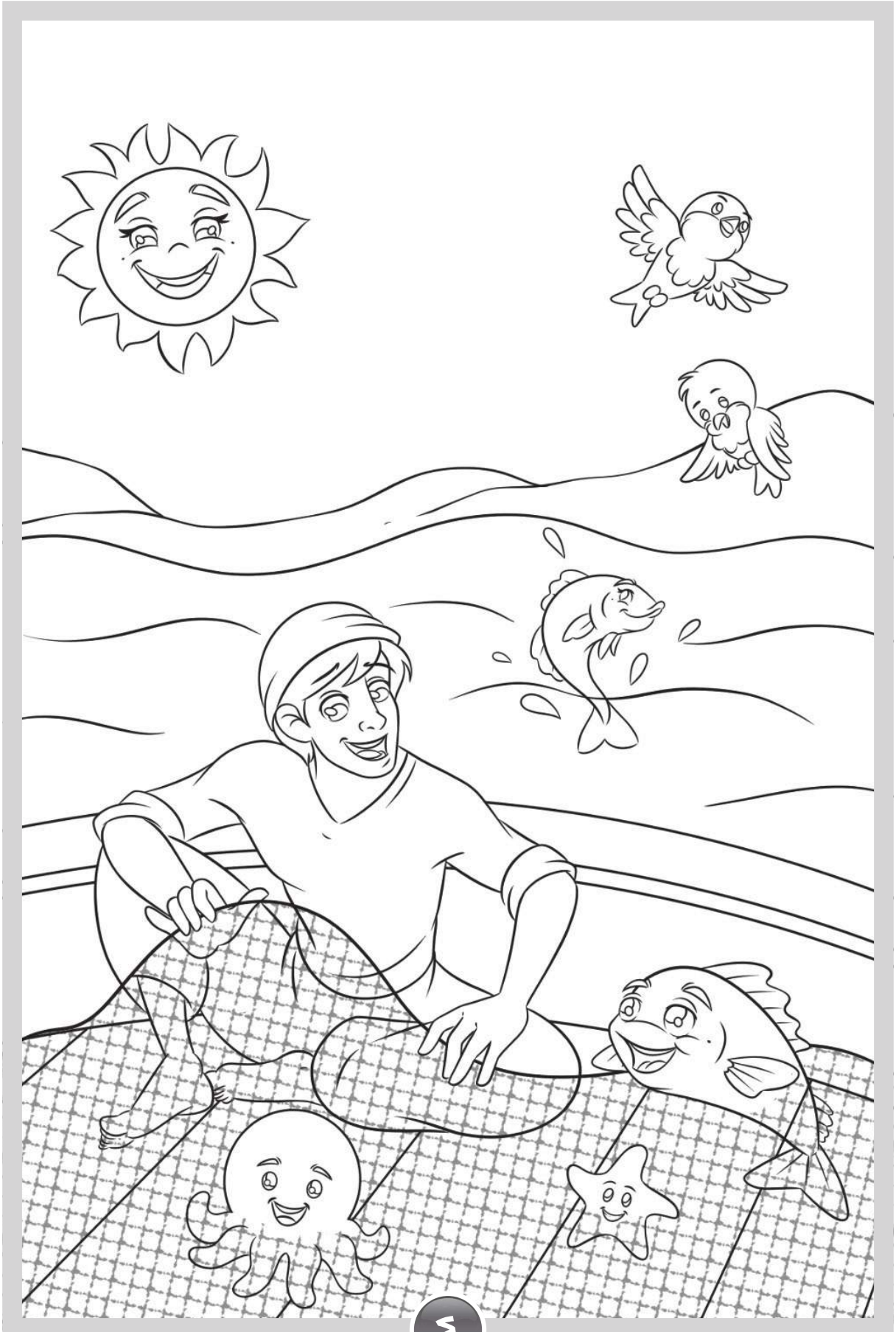

يُقالُ إنّ البشـرَ عاشـوا في قديم الزمان في قريـة نائية آمِنينَ مُطمئنّيـن. كانت الخيراتُ تفيـض، والينابيعُ تتفجّـرُ من قمم الجبـال الـخُضْر بمياه عذبة تبلـغُ كلَّ دار. غمرَ الخيرُ القرية، وتكاثرت فيها الحيوانات، وامتلأت الأرضُ بالنبات والشجر الـذي اخضرَّ وعـلا. لم تبخـل الأرضُ علـى أهلهـا بالخير، فمـنَـحَـتْـهُـم كلَّ ما يشتهونَ من فاكهة وخضراوات وحبوب وعسل، فكانت النّسـوةُ يتنافَسْنَ في اختيار النوع الأشهى من لـحوم الأبقار والماعز والطير، أمّا شِـباكُ الصيّادين فلا تقوى على حمل ما فيها من أسـماك شـهيّة تخرجُ من المياه، فتلمعُ بألوانها البهيّة.

اعتـادَ الناسُ الخيرَ يأتيهم وافراً بـلا تعب، فكانوا ينهضُونَ مُـتأخّريـن، ويرتـدونَ أجملَ الثيـاب، ثـمّ يُـمْضُـونَ يومَـهم لاهِـيـن، ومن كثـرة الضَّجـر وقلّة العمـل، قسـتْ قلوبُـهم، وأصبحُـوا أكثرَ أنانيةً وبُـخلاً. لم يَعُد الجارُ يسألُ عن جاره، وصـارَ من الـمُعتـاد أن نجـدَ أحدَهم يختطفُ حبّـاتِ الكرز التـي تتدلّـى من شـجرة على جداره قبـلَ أن يراها أحدٌ غيره،

أمّا التُّـجّـارُ فقد تكدّسَـتْ فـي متاجرهم جرارُ الذهب، ولم يدفَعْـهُم ثراؤُهم إلى تخفيض الأسعار، بل زادُوها طمعاً في مزيد من المال.

كان الصبـاحُ يخلو من البشـر، فالجميعُ نيـامٌ بعدَ ليالٍ من اللَّـهـو والسَّـهر. أصابـت التُّـخمةُ البطـونَ، وخبَتْ شُـعلةُ الأذهـان، وإنْ لـم تجدْ ما يُوقِظُها فإنّـها قـد تنطفئ، وهذا ما جرى مع هؤلاء الـمُتـخَـمين. لم يَعُـدْ أحدٌ يعبأ بتعليم أبنائه، أو بقراءة كتاب جديد، أو حتّـى بالتفكير في الـمُستقبل، وما فائدةُ التفكير ما دامت الـملذّاتُ كلُّها في مُـتناول الأيدي؟ لا خوفَ على الأطفال من الـمُستقبل، فالخيرُ كثيرٌ، ولن يُضطرَّ أحدٌ إلى العمل لكسـب قُوت يومه كما فعلَ آباؤُهُ وأجدادُه، ومع مرور الوقت انتشرَ الجهلُ بين الناس، فزادَهم قسوةً.

اعتـادَت الأنظارُ جمالَ الطبيعة، ولم يَعُـدْ أحدٌ ينبهرُ بأيِّ مشهد. كانت السماءُ تُرسلُ إليهم، بعد كلِّ غيث، جسراً من نـور، يُولَـدُ من خلف الجبل، لـيـمُـرَّ فوقَ رؤوس الأطفال، وهـم يلعبـونَ فوق التلّـة، ثـمّ يُـكمـلُ طريقَـهُ، ليصلَ إلى

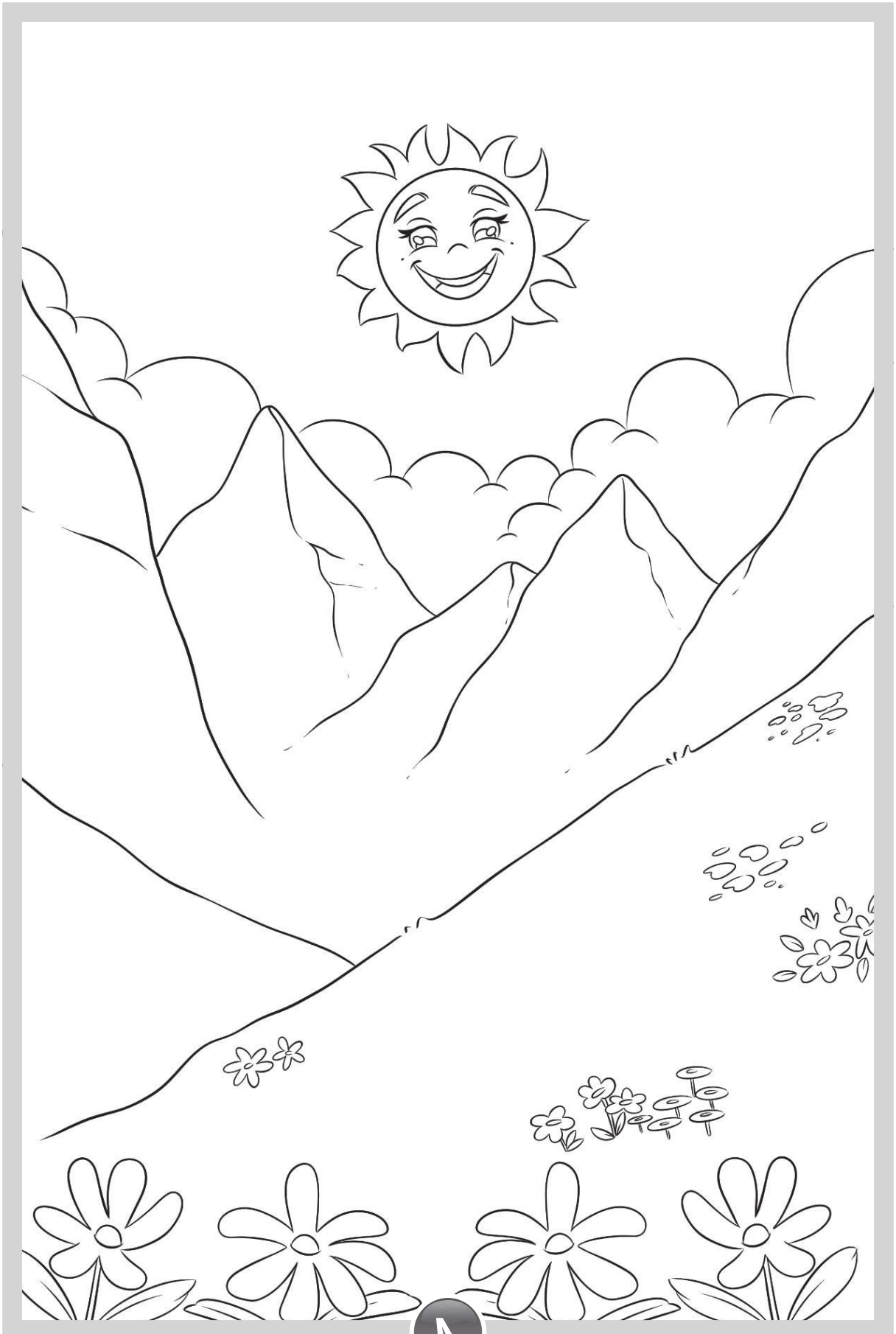

الشّـلّال في الطرَف الثاني من القرية، فتمتـزج ألوانُـهُ بالمياه في مشـهد باهر الجمال يسـتمرُّ سـاعةً كاملة، لكـنْ دُونَ أن يلتفتَ أحدٌ إليه. كانت مياهُ الشّلال تتلوّنُ بألوان الطيف التي ظلّتْ تطلعُ كلَّ يوم من خلف الجبل في انتظار من يراها.

ذاتَ يوم اسـتفاقَ الأهالي، وفتحوا النوافذَ لتدخُـلَ أشـعّةُ الشـمس، لكنْ لم يدخُـلْ شيء. لا شيءَ سوى ضوءٍ باهت لا حياةَ فيه. خرجَ الجميعُ من منازلهم ينظرونَ إلى السـماء. مـا الذي جرى يـا تُرى؟! كان قُرصُ الشـمس مُعلّقاً في كبد السـماء، لكنّـهُ كانَ في هذا اليـوم رماديّاً كئيباً. لاحظَ الناسُ أنّ الأشياءَ فقدَتْ ألوانَـها، فلم تَعُـد التلّـةُ، التي اعتادَ الأولادُ اللعـبَ عليها، خضـراءَ، بل إنّـها رماديّة. أمّـا أزهارُ الـمرج القريـب فقد باتتْ سُـوداً، كأنّ شُـعلةً أحرقَـتْـهـا وتركَـتْـها رمـاداً، والبحـرُ فقدَ لونَــهُ الفيـروزيَّ وأسـماكَـهُ الـمُلوّنة. لا ألـوانَ في المكان. أيـن اختفت الألوان؟ تسـاءلَ الأهالي مذعوريـن: هل سـيطولُ الأمـر؟ اجتمـعَ النـاسُ، وفكّـرُوا

طويلاً دُونَ أن يَـلْـقَـوا أيَّ إجابة.

ومعَ مرور الأيام، خبَـتْ مظاهرُ الحياة لانعدام الألوان. في كلِّ يـوم يذهبُ الفلّاحونَ إلى أراضيهم في سـاعة مُـتأخّرة، ويَرمُــونَ معاوِلَـهـم علـى التُّربـة التـي فقـدَتْ خُصوبتَـها، فأصبحت الأشـجارُ لا تطـرِحُ ثماراً تكفيهم، أمّـا الصيّادُونَ فإنهـم يُبـحـرُونَ في الميـاه القاتمـة، ويفردُونَ أشـرعتَـهُـم الرماديّة، فيزدادُ طريقُـهم فـي البحر ظُـلمةً، ولا يعودونَ إلّا بقليل من الأسماك الباهتة.

لـم يعبأ أهالي القريـة بانعدام الألـوان كثيراً، فقـد اعتادُوا هذه الحالَ، واستمرُّوا في حياتهم الـمُتراخية على الرغم من نقص الغذاء، وفقدان ملابسهم الحريرية ألوانَـها الـمُبهجة، وخُـلـوّ مسـاكـنهم الفاخرة من أنوارها الـمُبهـرَة. استمرُّوا في الطّمع، مُـنتظرينَ عودةَ الألوان إلى الأشـياء من حولهم. مضـى عامٌ تلـوَ العام، وحـالُ القرية لم تتغـيّــر، فظهرَ جيلٌ مـن الأطفـال لا يعرفُ معنـى الألـوان، ولا يُصـدّقُ قصصَ

الجدّات في أمسيات الشتاء عن حُمرة الأزهار وزُرقة البحار واخضرار المُروج. لم يتمكّنْ هؤلاء الأطفالُ من إدراك معنى ما يسمعون، وظنُّوا أنّ هذه الحكاياتِ ليست سوى من وحي خيالِ الجدّات.

لكنَّ فتىً اسمُهُ همام كانَ يعلمُ أنّ جدّتَهُ تقولُ الحقيقةَ دوماً. أيُعقَلُ أن يكونَ ما تحكيه عن هذه الألوان من نسيج خيالها؟ توجّهَ ذاتَ صباح إلى مكتبة القرية المهجورة. مسحَ الغُبارَ عن الكتُب، وبحثَ فيها طويلاً، حتى عثرَ على قصّة تحكي عن الألوان. هذا ما حدّثتْهُ عنهُ جدّتُه. قرأ بصُعوبة، إذ إنّ مدرسةَ القرية أغلقتْ أبوابها، لكنّهُ تعلّمَ القراءةَ على يد جدّته، التي كانت تُلحُّ عليه بأن يقرأ. أخذَ يُهَجِّئ: أزرق، أخضر، أحمر، بُنّيّ، أصفر... تلك هي أسماءُ الألوان كما سمعَها من جدّته.

ازدادَتْ حيرةُ همام، فسألَ نفسَه: لماذا اختفت الألوانُ من قريتنا؟ لا بُدّ أن يكتشفَ السبب. قطعَ حَبْلَ أفكاره صوتُ أبيه، وهو يُناديه، فاضطرَّ إلى العودة معه إلى البيت.

فـي تلك الليلة لم ينـمْ همـام، وهو يُفكّر. كيف يُـمكِـنُ للطبيعـة أن تفقدَ ألوانَـها؟ عزمَ على أن يعودَ ليبحثَ عن سـرِّ الألوان المفقودة، وبعدَها سُـرعانَ ما نامَ تَـعِـباً بعد طول تفكير.

لـمّـا ظهرَ القُـرصُ الرمـاديُّ في السـماء علـمَ همام أنّ الصبـاحَ قد أتـى. خرجَ من البيت، ومشـى وحيداً في القريـة. لم يلـقَ أحداً فـي الطريق، فالجميـعُ نيام. دخلَ المكتبةَ مُـتلـهّـفاً، وهو يشـعرُ بأنه على وشك حلِّ لُغز الألوان. بحثَ بين الكتب التي يعلُوها الغُبارُ بلا جدوى. شـعرَ بخيبة الأمـل، وتـملّـكَـهُ الملَلُ، وقـرّرَ الرحيلَ، ولـمّـا وصلَ إلى الباب لفتَ نظـرَهُ كتابٌ مَـرْمِـيٌّ على الأرض، عنوانُـه: «يوميّاتُـنا». أخذَهُ، ونفضَ عنه الغبار، ثـمّ دسَّـهُ في جيبه، ومضى عائداً.

أسـرعَ همام إلى بيتـه، مُـتلـهّـفـاً إلى قـراءة الكتاب. قـلّـبَ صفحاتِـه العتيقةَ التـي تآكلَتْ مـن أطرافها، ثـمّ قـرأ: «في قريتنـا ينهضُ الجميعُ باكـراً تملؤهم الـهِـمّـةُ

للعمل. يتعـاوَنُ الفلاحُ مع الحدّاد والخبّــاز والـمُعلّم على رسـم معالــم الحياة الرغيـدة. هنا في قرية النشـاط لا مكانَ للكسـل. سِــرُّ هنائنا وخيراتنا يأتي من أنفُسنا. نرسمُ ملامحَ غدِنا بأيدينا، فإنْ بقينا نياماً فسنفقدُ بريقَ أيامنا. بـحُبِّ العمل سنضمنُ حياةً تتلوّنَ جمالاً».

انتبـهَ همام لكلمـة (تتلـوّن). هل يُـمكـنُ أن يكونَ ما قرأهُ حلاً لـمُشـكلة قريته؟ لطالَـمـا أزعـجَـهُ كسلُ الأهالي. كم رجـا أن يستيقظَ يوماً على صوت طرقات الـمعاول وعربات الأحصنة وهدير الـمطاحن!

خـرجَ همـام إلـى أهـل قريتـه الكسـالى، واعتلـى إحدى العربات، وصاحَ بصـوت مُرتفع، فتجـمّـعُوا بفضول. فتـحَ الكتابَ، وقرأ لهم، وهم يَرمُقونَـهُ بلا فهم. سَـخِـرَ بعضُهم، وتجاهـلَـهُ الآخرون، ولم يتبقَّ إلّا قلّـة استمعَتْ إلى ما يقرأ، ثـم عزمَتْ على تغيير عاداتها، والعودة إلى العمل بنشاط.

ومـعَ مرور الوقت، بـدأتْ آلةُ الحياكة فـي متجر الخيّـاط تهدرُ باكراً لتمتزجَ بهديل الحمائم، وقلَّـدَهُ بائعُ الخضراوات،

الذي نظّفَ بضاعتَـهُ، وعرَضَها لتبدُوَ لوحةً بديعة، وبعدَ أيام فاحـتْ مع أول خيط للفجر رائحـةُ الـخُبز من الفُرن، ومع أول نورس حلّــقَ فوق البحر، ارتـمَتْ شِـباكُ الصيّادين، مُسْتبشـرَةً بـرزق جديـد. تغيّـرتْ أحـوالُ القريـة، وبدأت تباشـيرُ الخيـر تلوح. كـم كانتْ فرحـةُ همام كبيـرةً لـمّـا أدْلــى الدّلْـوَ في بئـر القرية، فإذا بها تَـخـرُجُ بمياهٍ زرقاء. تلفَّتَ حولَـهُ، فرأى الـمرجَ قد عادَ أخضرَ، ثـمّ استعادَت الأشياءُ كلُّها ألوانَـها.

تـجـمّعَ أهالي القرية، ورُؤوسُهم ترنُـو إلى السماء، التي احتضنَـتْ قُرصَ الشـمس الدافـئ، يَـمُدُّهم بنور سـاطع. عادت الحياةُ تغمرُهم، والبهجةُ تدفعُـهم إلى العمل بنشاط لـم يَـعْـهَـدُوه. فتحت المدرسةُ ومكتبتُـها أبوابَـها. تغيّـرَ أهالـي القرية، وعلمُوا أنّ الخيـرَ لا يعـمُّ إلّا إنْ تَـخلَّوا عن الطمـع والكسـل والجهـل، وتـمسّــكُوا بالعطـاء والعلم وحُبِّ العمل.

من إصدارات الهيئة العامّة السوريّة للكتاب

تشرين الأول ٢٠٢٣

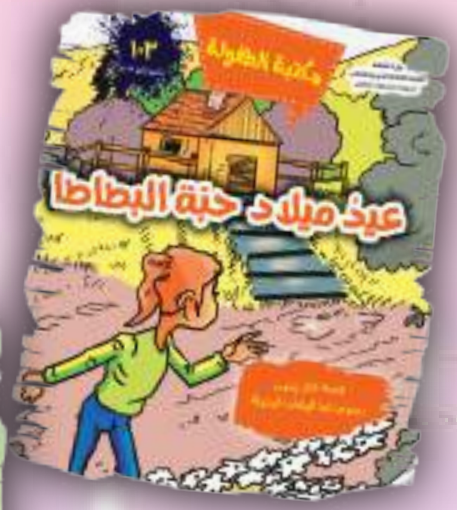

www.syrbook.gov.sy
E-mail:syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامّة السوريّة للكتاب - ٢٠٢٣م
سعر النسخة: ٥٠٠ ل.س أو ما يعادلها